-المحاضرة (1): تاريخ علم الاجتماع (1)

-تمهيد:

إن التقدم الملحوظ الذي كملت صورته في التفكير في دراسة الظواهر الاجتماعية، يظهر بوضوح في مراحل أزمة من الأزمات عندما تتعدى الحوادث والاضطرابات "الأطر" الاجتماعية التي تعوّدها الناس والحلول التقليدية التي درجوا عليها. وفي أية دولة نظمها ثابتة وهيكلها الاجتماعي موحد ثابت يظل تفكير الانسان راكدا بدون أية اثارة. أما الحوادث غير المرتقبة فتفرض مجهودا من التأمل والتفكير والتكيف من جانب المثقفين. وعلم الاجتماع هو العلم الوحيد الذي تابع منذ مولده دراسة الظواهر التي في طريقها الى التغير المستمر، وكل مرحلة من مراحل هذا العلم مرتبطة تمام الارتباط بظاهرة من ظواهر عدم الاستقرار الاجتماعي...

وشرط التفكير الاجتماعي وجود نخبة مثقفة أو وسط ثقافي يحاول أن يحلل وأن يتعمق في العناصر المباشرة للتجربة، وأكثر من ذلك عليه أن يصنفها بشيء من الحرية ...وقد وجدت كل هذه الشروط مجتمعة للمرة الأولى في بلاد الإغريق التي ازدهرت فيها كبريات المدارس الفلسفية مثل مدرسة السفسطائيين، ومدرسة أرسطو، ومدرسة أفلاطون في أثناء المرحلة المضطربة التي كان مركزها حرب البولوبينيز.

وفي ظلّ كل مجتمع مبادئ اجتماعية كامنة لا تتبلور إلا نادرا. ومثل هذه المبادئ لا توجد إلاّ في تنظيمات المجتمعات التي هي أكثر بدائية. وكل شيء يمضي في مثل هذه المجتمعات يبدو وكأن القوانين والحقوق والتنظيم العائلي والاجتماعي ناتجة عن عدد معين من المبادئ والدوافع. ومن المهام الرئيسية لعلم دراسة الانسان والتاريخ استخلاص هذه المبادئ، وهذه الدوافع من جملة الحقائق التي تقوم على دراستها مثل هذه العلوم.

وقد نقل لنا المؤرخون من علماء الاغريق والرحل منهم بعض الصور عن الشرق القديم وتنظيماته الاجتماعية، وتعكس هذه الصور ما كان للطقوس الدينية من مكانة عظيمة عند تلك الشعوب. ولقد أشار هيرودوت (herodote) أن أيديولوجية المصريين القدماء مثلا كانت نوعا من التأييد للتنظيم الاجتماعي الذي تصوروه بالنسبة للدين.

وللمجتمعات الهندوكية التي هي أكثر قدما ...فلسفة اجتماعية مرتبطة بالعقائد الدينية البراهمية، وبالرغم من أن علم الديانة الهندوكية مليئة بالكثير من الأساطير والخرافات؛ فإن بها حقائق اجتماعية آمن بها الناس في ذلك العصر على أنها عقائد دينية.

وفي أمريكا قبيل عصر كولومب كانت هناك بعض المفاهيم الاجتماعية قبل ظهور المبادئ والمعتقدات التي هيمنت على تنظيم المجتمعات الامريكية، وكانت هذه المجتمعات ذات خصائص تختلف الواحدة عن الأخرى وخاصة المجتمعات ذات الطابع الإلهي، ويقصد به المجتمع الاقطاعي والعسكري.

وربما ينحصر في هذه النقطة بالذات، الطابع المميز للمجتمعات الشرقية، فلم يقيم التنظيم الاجتماعي فيها على مبادئ دينية فقط، بل أنه يعتبر كذلك امتدادا مباشرا لعالم علوي.

وكان الامبراطور في الصين القديمة، وخاصة في عصر الاقطاع يعتبر "ابن السماء"، كما كان "الميكادو" يعتبر في اليابان إلها، ومع ذلك فقد اهتم المفكرون الكلاسيكيون في الصين ببعض المشكلات الاجتماعية، ولكن هذه المشكلة ظلت

مندرجة تحت مذهب نفعي ضيق وتحت مبادئ أخلاقية قاسية كل القسوة، تدعو الى عدم مبالاتها بآلام الأفراد وخاصة النساء منهم.

لقد أتاح وجود المجتمعات المختلفة في المدن الاغريقية ظهور الرواد الأوائل لعلم الاجتماع..

I -الفكر الاجتماعي عند الاغريق:

1-أفلاطون(platon) (429-347 ق.م):

تتلمذ على يد سقراط ولازمه ثمانية أعوام فسمع مناقشاته ودون الكثير من أرائه...وقد اهتم بدراسة المذاهب الفلسفية الشائعة في زمنه، وشملت دراسته مذاهب الفلسفة الشرقية كالهندية والفارسية.

استهل أفلاطون كتابه "الجمهورية" بدراسة العدل، واعتقد أن أحسن تعريف لحقيقة العدل يكون بتحليل المجتمع وتحليل النفس البشرية، لكنه بدلا من أن يبدأ بالفرد وينتقل الى المجتمع نجده يقوم **بتحليل المجتمع البشري أولا**، وحجته أننا **نرى الفرد في المجتمع على صورة أكبر وأوضح.**

إنّ خلاصة أفكار أفلاطون نجدها في مؤلفه الرئيسي " الجمهورية" الذي يعرض منهجا حقيقيا للفلسفة الاجتماعية. ومن أجل هذا، فأفلاطون **لا يرسم تخطيطا اجتماعيا للمدينة على ما هي عليه، بل ما يجب أن تكون عليه**. وهناك مشكلة أخرى شغلت بال أفلاطون وهي كيف يمكن تجنب الاضطرابات والقلائل التي لا تحتمل وتسبب دمارا مما يؤدي الى شقاء بلده وبؤسه وهو يقول في هذا المقام: " يجب علينا أن ننظم بلادنا بطريقة مدروسة وثابتة"... ولكي نتجنب هذه الاضطرابات والقلائل يوصي هذا الفيلسوف بالرجوع الى المنظمات القديمة لبلاد اليونان(اسبرطة). **ويقول اسبيناس (espinas):** " يعد أفلاطون أكثر فلاسفة السياسة مثالية وواقعية في الوقت نفسه". ويعتمد **مفهومه الاجتماعي على مفهومه السيكولوجي**، وهذا المفهوم الأخير يُبنى على تحليل الاتجاهات الايجابية للروح الإنسانية (وفي رأيه أن هذه الاضطرابات الاجتماعية تنشأ من تعاقب الدورات السياسية التي تنتج بدورها عن اختلاف المفاهيم السيكولوجية بين الأجيال المتعاقبة. وهو يرى أن التطور الاجتماعي قائم على التسلط المتعاقب لعدد من النماذج السيكولوجية الدائمة وهي: المنصفون والطامعون، والمستبدون. وهو يقيم ارتباطا منطقيا بين سلوك الدولة وسلوك الافراد فيقول: "يختلف سلوك الحكومات، كما تختلف قلوب الناس".

2- أرسطاطاليس: (aristote) (384-322ق. م):

ولد ارسطاطاليس في مستعمرة يونانية يقال لها "ستاجيرا" على ساحل مقدونيا بالقرب من ترافيا، وكان السلطان اليوناني في ذلك الوقت موضع للتنازع بين مدن ثلاث هي اسبرطة وأثينا وطيبة...نشأ هذا الطفل نشأة خاصة وأثر فيه ما كان يشهده من ضعف اليونان وفساد أمرهم. نستطيع أن نعد العصر الأخير من حياة ارسطاطاليس عصر الإنتاج العلمي، فلم يكد يستقر به المقام في أثينا حتى بدأ دروسه العلمية والفلسفية والأدبية، وتتلخص فلسفة أرسطاطاليس من الناحية العلمية في أربعة آراء:

-البحث عن الانسان من حيث أنه جماعة سياسية، وهو الفلسفة السياسية.

- البحث عن الانسان من حيث أنه فرد من جماعة له حقوق وعليه واجبات، وهذا هو علم الأخلاق.

- البحث عن الانسان من حيث أنه مفكر، وهذا هو علم المنطق.

- البحث عن الانسان من حيث أنه مفكر يريد أن يعبر عما يجول في خاطره من صور وحكم، وهذا هو علم البيان.

وبالرغم من أن أرسطاطليس تلميذ أفلاطون، فإنه يختلف عن أفلاطون في أنه لم يعمد الى تلك المبادئ الخيالية التي عمد اليها استاذه؛ بل سعى الى الربط بين القديم والحديث عن طريق الحقيقة، ووضع بعض الأنظمة والمبادئ العلمية التي هي أقوى وأمتن من أنظمة أستاذه وقد سماه افلاطون بالفيلسوف الواقعي، كما سماه "شيشرون" برجل النصاحة ذي المعلومات الجامعة والفكر الواضح. ويعد انتاجه في الميدان الذي يهمنا هو كتابه "السياسة"، ففيه يقوم بدراسة ومقارنة للدساتير السياسية والمنظمات بوجه عام لجميع المدن الاغريقية وبعض الدول المشابهة مثل قرطاجنة، وقد حاول **دراسة الظواهر الاجتماعية بالطريقة التي أراد أن يدرس بها الظواهر الطبيعية** والظواهر النفسية وما بعد الطبيعة (يقول " الانسان حيوان سياسي" أي أنه مرتبط تمام الارتباط بالحياة في مجتمع، **فلا يمكن فهم الانسان بمفرده معزولا عن إطاره الاجتماعي** الذي يعيش فيه...وهو يبرز تأثير المناخ على السيكولوجية الإنسانية. ويقول: إن **الاسرة هي الوحدة الاجتماعية**، أي أنها هي الذرة التي لا تقبل القسمة والتي تُكوّن مع ذرات أخرى تشبهها الجسم الاجتماعي، على عكس فلسفة أفلاطون الاجتماعية التي تقوم على هدم الزواج والقضاء على الأسرة. وهناك اقتراحات أخرى لأرسطو في الميدان الاجتماعي كانت بمثابة قواعد هامة لخلق مدارس اجتماعية فيما بعد أهمها:

يعتبر ارسطو أن **المجتمع عبارة عن مخلوق حي خاضع لقانون الولادة والنمو والموت**، وهو يشير الى أن التغيير هو الشرط الوحيد لحياة المجتمعات وتُشكّل هذه المجتمعات من عناصر متباينة ينتج عنها التسلسل في المراتب والحكومة وتقسيم العمل وينتج من ذلك كله **نظام من التوازن.**

وخلاصة القول أن دراسة هؤلاء الرواد الاغريق بعلم الاجتماع من الأهمية بمكان، لأنهم عرفوا الواقع والاتجاهات التي انبعثت منها جميع المدارس السياسية والاجتماعية، ويمثل أفلاطون الاتجاه المتشدد ...وينتمي الفرد في نظره جسما وروحا الى المدينة ومعنى هذا القضاء على كيان الأسرة الذي يتعارض مع كيان الجماعة، وهو يعتبر أن الدولة لها الولاية الوحيدة على القانون والأخلاق...ويمثل أرسطو الاتجاه المضاد، ففي اعتقاده أن علم الاجتماع قبل كل شيء علم ملاحظة، والمجتمعات عبارة عن مخلوقات حية تكون القاعدة فيها هي الحركة، واختلاف البيئة والتكوين هما اللذان يفرضان عليها الخلافات والاضطرابات.

3-السفسطائيون (les sophistes):

... لقد ظهر تجاه هؤلاء الفلاسفة مفكرون آخرون كانوا أقرب إلى منطق الحياة الواقعية منهم، وهم الذين اشتهروا في تاريخ الفلسفة باسم السفسطائيين فكان من رأيهم أنه ليس في الدنيا حقائق مطلقة، وإنما هي حقائق نسبية، فما يراه بعض الناس حقا قد يراه بعض الناس باطلا، والانسان إذن هو مقياس الحقيقة في نظرهم.

والفلاسفة الأوائل من الاغريق الذين عالجوا بعض المشكلات الاجتماعية هو السفسطائيون. وقد تَزودْنا بأفكار هؤلاء إلا من خلال كتابات أعدائهم، فهم لا يذكرون مؤلف أفلاطون (بروتاجوراس) أو مؤلف ارستوفان إلاّ للنقد والسخرية. ومهما تكن الأفكار التي احتوتها هذه المؤلفات؛ فإنها تعتبر فتحا جديدا في الميدان الاجتماعي من ناحية ظهور الطريقة العلمية في معالجة المشكلات الاجتماعية أو غير الاجتماعية، **وكانت طريقتهم قائمة على الملاحظة والمقارنة والنقد. ولا**

يثق السفسطائيون في التفسيرات المألوفة ولا في الأساطير والخرافات وهم ينددون بالأفكار والعادات القديمة التي كانت تسود المنظمات الأثينية، برغم التطور الهائل في التجارة والثقافة في هذه البلاد. من أجل هذا بدأوا في البحث عن قانون طبيعي قائم على **احترام الشخصية الإنسانية**. وقد عملوا ما في وسعهم على تحرير الفرد الذي ينتمي إلى المجتمعات القديمة، وقد انصبت كل بحوثهم **على مسائل أخلاقية**، فحاربوا الرق والقومية العنيفة التي اشتهرت بها المدن الاغريقية. وهذه أول مرة في تاريخ الفكر الإنساني يرى فيها المرء **مناقشات حرة حول مسائل اجتماعية** أدت الى خلق العبقرية الاغريقية في عالم ظلت فيه الفلسفة سقيمة على الفهم ومقصورة على المشتغلين بها.

لقد كان من المتوقع أن يتطور الفكر الاجتماعي على يد هؤلاء إلى غير ما تطور إليه على يد الفلاسفة، ولكنهم مع الأسف أخفقوا في معركتهم. وانتصر الفلاسفة عليهم انتصارا ساحقا حتى أصبح اسم السفسطة في النهاية لقبا يراد به الذم ويقصد به المغالطة والتفكير الملتوي. يبدو أن الفلاسفة تمكنوا من هذا الانتصار الساحق على السفسطة؛ لأنهم كانوا سادة من أصحاب النفوذ والمنزلة العالية في المجتمع، بينما كان السفسطائيون معلمين غرباء يحصلون على قوتهم عن طريق التعليم، وظل النصر في يد الفلاسفة على توالي القرون التالية، إذ هي بقيت من اختصاص الأسياد من الناس في الأمم المختلفة، وكأنها أصبحت ترفا فكريا لا يليق بغير الاسياد أن يشتغلوا به ...إن هذا كان من الأسباب التي جعلت التفكير الاجتماعي الواقعي نادرا (في تراث الفلسفة القديمة. فقد كانت الفلسفة القديمة مشغولة عنه بما وراء المجتمع والحياة من أفكار مطلقة، وإذا تنازل أحد الفلاسفة فنظر في أمور المجتمع، أخذ ينحو في ذلك منحى طوبائيا وعظيا، أي ينظر الى ما يجب أن يكون، لا فيما هو كائن فعلا، كما فعل أفلاطون في جمهوريته أو الفارابي في مدينته الفاضلة.

II -الفكر الاجتماعي عند الرومان:

لم يأت الرومان بجديد عن المفهوم الأصلي لعلم الاجتماع، ولكن الفكرة الرومانية أدت دورا كبيرا في علم الاجتماع الوصفي، وقد أتاحت لهم فتوحهم الفرصة لدراسة عادات البلاد الأخرى ومنظماتها كفتوح الامبراطور تاسيت (tasite) بالنسبة للجرمانيين وفتوح يوليوس قيصر (jules césar) بالنسبة للغال.

يمتاز التفكير الروماني بطابعه العملي، والشيء الغريب حقا هو أن الفكرة الاجتماعية للإمبراطورية العظيمة في الطرف الآخر تتشابه تماما مع الفكرة الرومانية، وزيادة على ذلك أن خصائصها مماثلة لها كل التماثل. يقول لوي ويبر (louis weber) أن تجرد الرومان العلمي لا يواتيه غير أهل الصين. لقد أخرج الرومان مثلهم في ذلك مثل أهل الصين روادا مبرزين في علم الاخلاق مثل شيشرون (Cicéron) وسينيك(Sénèque). وكانت روما الامبريالية هي الواضعة الحقيقية للقانون الحديث والتي عرفت أن تستخلص منه عَبر عدة قرون المبادئ الأساسية (وينتج عن ذلك تطور بطيء للحالة العامة للإنسانية والعلاقات الاجتماعية. وتشكل هذه المفاهيم وهذه المعتقدات التي توجه هذه العلاقات ما يمكن أن يسمى بعلم الاجتماع الحقيقي.

- الثورة المسيحية: (للتوسع)